

## أسباب انتشار «سيرة عنزة» في العصر العباسي الثاني

شاکر العامري<sup>١\*</sup>، محمدعلي عامري<sup>٢</sup>

١. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة سمنان

٢. طالب ماجستير في اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران

تاريخ قبول: ١٣٩٤/٠٥/٢٦

تاريخ استلام: ١٣٩٣/٠٨/٢١

### الملخص

«سيرة عنزة» هي من أكبر القصص الملحمية التي استمدت مادتها من شخصية «عنزة» الحقيقية، أي من الشاعر والفارس الكبير الذي كان يعيش في العصر الجاهلي. وجرى ذكر «سيرة عنزة» على ألسنة الناس على مرّ العصور حتى العصر العباسي وما بعده إلى العصر الحديث، فصارت السيرة ضخمة تحمل الكثير من المبالغة في قدرة «عنزة» بن شداد وشجاعته بين دفتيها. وقد اهتم الناس، في العصر العباسي الثاني، بما أكثر من أي وقت مضى، ولم يكن اهتمام الناس بـ «سيرة عنزة» بسبب وصول العصر العباسي إلى الترف والرخاء كما قال حنا الفاخوري، بل كان بسبب شدة ضغط الأوضاع عليهم، إذ كانوا يعيشون ظروفاً مزرية، حيث كانت حياة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية مضطربة جداً، وكان المجتمع على شفا حفرة من الهاوية. وكان النظام الطبقي سائداً في المجتمع الذي شاعت فيه الآفات الاجتماعية من قبيل التكدي والاحتيال والسرقة. وبينما كان الناس يعيشون في فقر مدقع تحت ضغط الضرائب الشديد، كان الخلفاء والأمراء وغيرهم من أبناء الطبقة الحاكمة يعيشون بذخاً ورفاهيةً وتبذيراً، وكانت هناك ثورات ومعارك شتى تدور في نواحٍ من الدولة المترامية الأطراف، من جانب، ومن جانب آخر تم إنشاء دويلات عدة في المناطق التي كانت تحت سلطة العباسيين. وعليه فقد تناول البحث الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية، وأهم الثورات في العصر العباسي الثاني. وأهم ما توصل اليه من نتائج هو أن الناس الذين كانوا يعيشون أوضاعاً صعبة كانوا يتطلعون إلى المنقذ الذي وجدوه في شخصية «عنزة» الخيالية التي صاغتها أذهانهم له.

الكلمات الرئيسية: سيرة عنزة؛ العصر العباسي الثاني؛ الأوضاع السياسية؛ الأوضاع الاقتصادية.

### المقدمة

كثر عدد الروايات والقصص الشعبية الطويلة في العصر العباسي الثاني وانتشرت هذه القصص بين الناس انتشاراً واسعاً ملحوظاً، بحيث كانوا يتسامرون بهذه القصص التي كانت تصطبغ بصبغة

الملحمة، وكانت حافلة بذكر سير أبطال العرب ووصف حروبهم وأعمالهم الخارقة في إطار كان يتراوح بين الحقيقة والخيال، وقد كانت المبالغة تحكم جوّ هذه القصص. ومن بين أشهر هذه القصص، يمكننا الإشارة إلى «قصة سيف بن ذي يزن» و «الزير سالم» و «ألف ليلة وليلة»، و «أبي زيد الهلالي» وفي نهاية المطاف «سيرة عنترة» التي تعدّ من أشهر الروايات والقصص الشعبية في هذا العهد، حيث طبعت طبعات شتى وتمت ترجمتها إلى كثير من اللغات العالمية وتطرق إليها الباحثون والمؤرخون على مر التاريخ. وبما أن «سيرة عنترة» كانت تروى في الأسمار ويتداول الناس حكايتها، كما نُقل عن الجاحظ، فإنّ أول ما يظهر للمتلقّي هو أن الناس في ذلك الوقت كانوا يعيشون في سعادة ورفاه وكانوا يتسامرون بـ «سيرة عنترة» فأكهين. ومن هنا تنبع ضرورة هذا البحث باعتباره محاولة لتغيير هذه الرؤية والبحث عن سبب آخر لهذه الأسمار، أولاً، ولترشيد النظر للمسائل التاريخية، بشكل عام، ثانياً.

وقد اتبعت المقالة المنهج الوصفي التحليلي فتناولت الموضوع عن طريق أربعة محاور رئيسة، وهي: التعريف بـ «عنترة» بن شداد العبسي، والتعريف بـ «سيرة عنترة» المدوّنة، ودراسة الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية (والاقتصادية) في العصر العباسي الثاني. وقد حاول هذا البحث أن يجد أجوبة للأسئلة التالية:

١. من هو واضع «سيرة عنترة»، ومتى تداولها الناس في أسمارهم؟
٢. هل انتشرت «سيرة عنترة» بين الناس بسبب الرفاه السائد في المجتمع؟
٣. هل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك هي التي أدت إلى نشر «سيرة عنترة»؟ كيف؟

إنّ الهدف من كتابة هذا البحث هو إثبات أنّ كثرة اهتمام الناس بـ «سيرة عنترة» وانتشارها بين الناس في العصر العباسي الثاني كان بسبب الظروف القاسية التي كان يمرّ بها المجتمع العباسي وما يتعرض له الناس من ظلم، فكان الناس يتطلعون إلى من ينقذهم من تلك الأوضاع القاسية المزرية وذلك الظلم، فوجدوا ضالتهم في شخصية «عنترة» الأسطورية.

### سابقة البحث

لم نستطع العثور على بحوث علمية محكمة تناولت «سيرة عنترة» بالدراسة، ولكن هناك إشارات إلى «سيرة عنترة» وما ورد فيها من الأحداث وحتى زمن تدوينها في البحوث العلمية كمقالة

«سيرة عنتره والدراسات الاستشراقية» لناجية غافل المراني (مجلة الآداب، العددان الثالث والرابع، سنة ١٩٧٧م)، حيث ذكرت فيها خلاصة لـ «سيرة عنتره» ثم قارنتها بالسيرة الأوربية. وهناك مقالتان بقلم فؤاد أفرام البستاني في مجلة المشرق، لسنة ١٩٣٠م، الأولى «عنتره التاريخ وعنتره الأسطورة ١» نشرت في العدد السابع، والثانية «عنتره التاريخ وعنتره الأسطورة ٢» نشرت في العدد الثامن. وقد قام الكاتب بتوضيح جوانب من حياة «عنتره» وجوانب من سيرته ليخلص للقول إن «سيرة عنتره» التي رسمت لـ «عنتره» صورة أسطورية قد استمدت مادتها من حياة «عنتره». وهناك مقالة منشورة في موقع المسالك الإلكتروني تتحدث عن سيرة عنتره تحت عنوان «سيرة عنتره إلباذة الصحراء عن جدارة»، استعرض كاتبها السيرة على مدى ثلاث صفحات متطرقاً للتخبط التاريخي الموجود فيها والذي طبعها بطابع أسطوري أخرجها من المؤلف، حيث اختلطت العصور والحوادث في السيرة بين جاهلية وإسلامية وصليبية واصطبغ «عنتره» بصبغة إسلامية. وهناك إشارات عدة إلى «سيرة عنتره» في كتب تاريخ الأدب ورد بعضها مصادر لهذا البحث، ولكننا لم نجد إشارة في الكتب أو البحوث المختلفة بشأن موضوع هذه المقالة. وهناك كتاب بعنوان سيرة عنتره ملحمة شعبية عالمية، تأليف يونس عبد الحميد تناول «سيرة عنتره» من ناحية قومية تعسفية، إذ نظر لعنتره نظرة قومية أحادية الجانب متغافلاً عن النواحي الأخرى.

### عنتره بن شداد العبسي

شخصية من أشهر الشخصيات الجاهلية أحيطت بماله كبيرة من الحب والإعجاب والفتوة والرجولة ونُسبت إليها الخوارق من الأعمال التي يعجز عنها الآخرون على مر التاريخ. وقد عرفه صاحب كتاب الأغاني بقوله: «هو عنتره بن شداد، وقيل عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية بن فراد بن مخزوم بن ربيعة وأمه كانت أمة حبشية وكانت العرب تستعبد بني الإمام» (الأصفهاني، ٢٠٠٨م: ٨: ١٦٨). وقيل شداد جده لأبيه واسم أبيه عمرو، وقيل شداد عمه نشأ عنتره في حجره (انظر: ابن قتيبة، ١٩٥٨م: ١: ٢٥٠).

كان «عنتره» في بداية أمره عبداً ثم تحرر. وفي كيفية تحرره هناك أقوال كثيرة، أشهرها روايتان وردتا في كتاب «الأغاني»؛ إحداهما عن ابن الكلبي والأخرى عن غيره، وهناك رواية ثالثة مبالغ فيها وردت في كتاب «ديوان المعاني». أما رواية «الشعر والشعراء» فهي نفس رواية «الأغاني»

عن ابن الكلبي مع تغيير طفيف في بعض ألفاظها دون ذكر السند<sup>١</sup>. وقد كان «عنتر» من الشعراء الجاهليين الكبار ومن أصحاب المعلقات السبع. وبجانب هذه المواصفات كان فارساً شجاعاً شارك في حروب شتى، ولكن شجاعته ظهرت في حرب «داحس والغبراء» التي استمرت أربعين سنة بين قبيلتي «عبس» و «ذبيان». وقد ذكر «زهير بن أبي سلمى» تلك الحرب في معلقته، مادحاً رجلين من رجال قومه قاما بالصلح بين الفريقين عن طريق تحمّلها ديّات القتلى، وهما «هرم بن سنان» و «الحارث بن عوف». يقول:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَهُ      رجالٌ بنوهُ، من قريشٍ ومجرهم  
 ميمناً لنعمِ السيدانِ مُجدتُما      على كلِّ حالٍ من سحيلٍ ومُبرم  
 تداركتُما عَنَساً ودُبيانَ بعدَما      تفانوا ودَقُوا بينَهم عطرَ منشيم  
 (ديوان زهير بن أبي سلمى، ٢٠٠٥: ٦٦-٦٧)

### سيرة عنتر

هذا الكتاب هو من أهم الكتب القصصية والروائية الضخمة التي كُتبت حول «عنتر» على مرّ العصور، وقد سماه بعض المستشرقين والمؤرخين - إن صحّ أو لم يصح - **إلياذة العرب**. والظاهر أنّ معالم هذه السيرة حقيقية في الأساس وليست كل هذه السيرة قصة خيالية بحتة. ويتحدث شوقي ضيف عن السيرة، التي امتدت أحداثها على رقعة كبيرة من العالم خارج حدود الجزيرة من العراق وإيران والهند شرقاً حتى جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وشرقها والشام غرباً، مظهراً إعجابه بها، حيث يقول: «ويتحوّل عنتر في السيرة بطلاً عظيماً **ملحمة عربية** تمتدّ فيها بطولاته من العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام» (ضيف، ١٤٢٨هـ: ٤٨٣).

وقد تعددت روايات السيرة حسب البلدان والمناطق، إذ يتحدث حنا الفاخوري عن الروايات المختلفة للسيرة قائلاً: «اختلفت روايات السيرة باختلاف البلاد التي كان لها فيها شأن، فكان منها الرواية الحجازية، والرواية الشامية، والرواية العراقية. أما الحجازية فأطولها، وهي أصل وكل ما سواها فروع. وأما الشامية فهي مختصرة ولا تختلف اختلافاً كبيراً عن الرواية العراقية» (الفاخوري،

١. انظر: (الأصفهاني، ٢٠٠٨م، ج ٨، ص ١٦٩ و ١٧٠، وانظر أيضاً: ابن قتيبة، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٢٥٠، والعسكري، ١٩٩٤م، ج ١، ص ١٠٨).

١٤٢٧هـ: ٥٩٧-٥٩٨). والواقع أنّ «سيرة عنتر» التي بين أيدينا هي تلفيق من كل تلك الروايات، وهذا ما أكّده المقالة المنشورة في موقع المسالك بقولها: «وهذه السيرة التي تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة الحجم تتحدث عن نجد بن هشام وجهينة اليماني وأبي عبيدة الأصمعي وسعيد بن مالك وغيرهم ممن عرفت أسماؤهم كرواة لها، والتي حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شيء يسير من الفروق، ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية سجلاً حافلاً لحوادث وقعت في الجزيرة العربية، والعالم الإسلامي في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والحادي عشر الميلاديين» (سيرة عنتر إلباذا الصحراء عن جدارة، موقع المسالك). وجدير بالذكر أنّ هذه السيرة «طبعت طبعات مختلفة و ترجمت بكاملها أو جزئياً إلى عدة لغات وكانت مثار إعجاب عدد كبير من المستشرقين الذين رأوا فيها سجلاً للتاريخ العربي القديم ومظهراً من مظاهر العادات العربية» (الفاخوري، ١٤٢٧هـ: ٥٩٨).

ترسم السيرة لعنتر عدّة صور. فهو فارس شجاع لا يُغلب في حروبه، بل ينتصر دائماً، وهو رجل كامل الرجولة والمروءة يتحلّى بصفات الفتوة التي جسدها لنا أبو الصعاليك، عروة بن الورد، وهو شاعر من فطاحل الشعراء الجاهليين، حيث تضجّ السيرة بأشعار كثيرة نسبتها له تصل إلى نحو عشرة آلاف بيت، ولكن لا تصحّ نسبة كثير منها. وهناك آراء مختلفة حول من وضع ودون هذا العمل الأدبي الضخم وفي أي زمن تم وضعه. بعضهم يعتقد أنّ «سيرة عنتر» ليست من صنع شخص واحد، بل تم جمعها على مرّ العصور، وينسبها إلى الرواة. ويعتقد البعض الآخر أنّ زمن تدوينها يعود إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، والقسم الثالث يرى أنّ زمن وضعها يعود إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أو أواخره. «أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية. فنحن نقرأ فيها مثل (فرحنا بسلامتك)، و (يا خوي الحمد لله)، و (لحد الآن)، و (إكراماً للعين تكرم ألف عين) - إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها» (سيرة عنتر إلباذا الصحراء عن جدارة، موقع المسالك). كما تتميّز السيرة بكثرة اللحن والمبالغة التي تصل حدّ الغلو، ولنأخذ مثلاً على ذلك: كانت السيرة في نهاية المجلد السابع تصف معركة بحرية بين ملك الإفنج الليلمان في ستين ألفاً وقيصر الروم يساعده عنتر (عنتر). وفي بداية المجلد الثامن، نقرأ: «قال الأصمعي) ولقد سألت شيبوب بنفسه، قلت: كم دخل إلى عنتر بهذه المراكب من الرجال؟ فقال: وذمة العرب، خمسة آلاف وستين رجلاً من الأبطال. والذي قُتلوا ورموا أرواحهم

إلى البحر من خوف سيف أي عنتر كانوا مثلهم ثلاثة أمثال... ولقد عاينت من أخي الهول المنكر... وتذكر عبلة والديار... فأنشد يقول:

أيا طير أحيّر لقيسٍ وقلن له/ بأبي ليث الحرب في البر والبحر/ وخبره فعلي بالقوم وقل له  
/رفيقي سيفي والفرنج لحمي ظهري/ ومجيز أمواجاً من المالحة/ وأمواج دم فوق مرينا تجري  
(سيرة عنتر بن شداد، (د. ت)، ٨:٢).

ولا يحتاج النص إلى تعليق؛ نثراً كان أو شعراً.

أكثر الباحثين والمؤرخين يؤمنون أنّ «سيرة عنتر» كانت قصة جارية على ألسنة الناس يتداولونها بينهم ولم تكن من صنع شخص واحد ومن بينهم حنا الفاخوري، حيث يقول: «لم تكن سيرة عنتر من وضع كاتب واحد، وإنما نبتت نبتاً طبيعياً على ألسنة الناس منذ أقدم العصور، أي منذ العصر الجاهلي، وراحت تتوسع على ألسنة الرواة حتى كان العصر العباسي، عصر الترف والرخاء فتناولها القصاص، من مثل الأصمعي، وضخّموا ما تلقّفوه من أخبار» (الفاخوري، ١٤٢٧هـ: ٥٩٧). ويذكر، في تنمة كلامه، أنّ الشيخ يوسف بن إسماعيل المصري (القرن العاشر الميلادي) هو من دوّنّها على الشكل الذي نعرفه اليوم و نسبها إلى الأصمعي. فالفاخوري، إذن، لا يعتقد بكون السيرة لم توضع من قبل شخص معيّن فحسب، بل يعتقد أيضاً بكونها نتاجاً للتلف والرخاء الذي كان سائداً في العصر العباسي الثاني، حيث كان القصاص يضحّمون ما يروونه من قصص لترغيب مستمعهم وتكثيرهم ليكثر بذلك واردهم المالي. ويعتقد «جرجي زيدان» أنّه تمّ، في بداية الأمر، جمع الأشعار والأخبار والأحاديث الخاصة بـ «عنتر» روايةً عن الأصمعي. وفي أواخر القرن الرابع للهجرة، وفي زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي، كان هناك رجل يُدعى الشيخ يوسف بن إسماعيل، كان يتصل بالعزيز بالله الفاطمي، اتفق مع العزيز بالله أن يشغل الناس عن الخوض في حوادث وقعت في دار العزيز بقصة أو ملهاة فكانت «سيرة عنتر». فقد جمع الشيخ يوسف بن إسماعيل روايات شتى عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم وكتب قصة «عنتر» وقرّنها في ٧٢ كتاباً (انظر: زيدان، (د. ت)، ١: ١١٣/ باختصار وتصرف).

وينقل الدكتور شوقي ضيف الرواية نفسها، لكنّه لا يؤيّد صحتها، وهو في أحسن الأحوال يعتبرها تخصّصاً بداية وضع السيرة دون ما أُضيف إليها في العصور التالية. يقول معلّقاً، بعد أن يورد الرواية: «غير أنّ هذه الرواية، إن صحّت، إنما تشير إلى أول ما كان من وضع السيرة، إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري» (ضيف، ١٤٢٨هـ: ٤٨٣).

أما أحمد حسن الزيات فيذكر أنّ السيرة تجمعت مما سار على ألسنة الرواة ويذكر ما ذكر جرجي زيدان في نسبة السيرة إلى الشيخ يوسف بن إسماعيل (انظر: الزيات، د. ت: ٣٩٤). وهناك رأي للدكتور عبد الحميد يونس يرى أنه «ليس صحيحاً أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشباهاها قد نجمت في حدود سنوات بأعيانها وأنها من تأليف شخصية معروفة، والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت على الأيام» (يونس، ١٩٩٥: ١٩). والواقع أنّ المتتبع لأحداث السيرة والأماكن والأزمان التي حدثت فيها حوادثها يلمس مدى الشوق لدى كاتب السيرة لشخصية عربية مسلمة لا تُقهر، فهي كالعنقاء (phoenix) اليونانية أو السيُمُرغ الفارسية أو التّين الصيني، إذ كان «عنتره» ينتصر على كافة أعدائه من أيّ فرقة أو ملة أو بلاد كانوا؛ من صناديد العرب الكفّار أو الفرس أو الهنود أو الروم أو الصليبيين الإفرنج أو السودان أو الأحباش. لقد استلهم كاتب السيرة كافة الأحداث التاريخية التي سبقتهم أو المعاصرة لهم وكافة الكتب الدينية والأساطير الشعبية بأسلوب قصصي شيق مستغلين العواطف الدينية والقومية للجماهير المستمعة. وحول سبب ظهور السيرة يعتقد الدكتور عبد الحميد يونس أنّ ذلك يعود إلى أسباب قومية، حيث كان العربيُّ يبحث عن هويته القومية التي يسميها «الذاتية القومية» بين شعوب أخرى، وسبب اختيار الجزيرة العربية والعصر الجاهلي يعود إلى نقاء العنصر العربي وأصالته فيهما (انظر: المصدر السابق: ٦). وهذا برأيي تعسّف ورأي غير دقيق، فلو كان ذلك صحيحاً فليَمّ قام عنتره بقتل صناديد العرب وهم أبناء جلدته؟ كلا، فإنّ الناس لم يكتفوا بكون المنقذ عربياً فحسب، فأسبغوا صفة الإسلام عليه أيضاً. وقد رسم أولئك الكُتّاب والقصاصون لعنتره صورة تُعجب الجماهير وتليّ طموحاتهم في الخلاص من الأوضاع المزرية التي فرضها عليهم الواقع المأساوي الذي يعيشونه، وتُبعدهم، ولو لسويغات، عن ذلك الواقع فتكون سيرة عنتره بذلك بلسماً لجراحهم ومرهماً لأوجاعهم وتسكيناً لآلامهم. ويمكن أن تكون السيرة قد تكاملت بعد القرن الرابع الهجري، لكنّ الشيء الذي يهنا هنا ليس ما حدث للسيرة في نهاية العصر العباسي الثاني وبعده حتى يومنا هذا، بل المهم هو الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه السيرة في العصر العباسي الثاني، خاصة في القرنين الثالث والرابع وبداية القرن الخامس الهجري. وعليه، فلا بدّ من أن ندرس الأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك لكي نصل إلى أسباب شيوع السيرة بين الناس في المجتمع العباسي، ونرى هل كان الناس يعيشون حياة مليئة بالترف والرفاه حقاً فأقبلوا على هذه السيرة. كما يعتقد حنا الفاخوري. أم أنّ الخليفة الفاطمي هو الذي أمر بكتابتها ثم سرت على ألسنة الناس. كما يعتقد بعض الباحثين كجرجي زيدان وغيره. أو أنّ هناك سبباً آخر يجب كشف الستار عنه؟!!

### الحياة السياسية في العصر العباسي الثاني

لم تكن الحياة السياسية في العصر العباسي الثاني كما كانت عليه في العصر العباسي الأول. إذ لا نرى استقراراً في الحكم، والخلفاء مشغولون بأموارهم من بناء القصور وجمع الأموال والجواهر وإقامة مجالس الطرب والخمر وما شابه. وكانت هناك صراعات ونزاعات مختلفة في شتى النواحي بين الفرقاء الطامعين في الاستقلال عن الدولة المركزية في بغداد عملياً والارتباط بها اسمياً، ونرى ثورات مختلفة ضد الحكم السائد، أدى بعضها إلى ظهور دويلات عديدة، حيث نرى في هذا العصر دويلات وإمارات في مختلف مناطق نفوذ العباسيين، وفي بعض الحالات قد تقوم إحدى تلك الدويلات بالسيطرة على مركز الخلافة وتقوم بإخضاع الخليفة العباسي لنفوذها ليكون الحكم بيدها لا بيد الخليفة العباسي، كدولة البويهيين ودولة السلاجقة. وقد تحدث معارك بين بعض تلك الدويلات والبلدان الأجنبية كالدولة الرومية، كما حدث في أيام الدولة الحمدانية على عهد سيف الدولة. وإنّ تلك الأمور وما آلت إليه الأوضاع في العصر العباسي الثاني لم يأت صدفةً أو من فراغ، بل كان بسبب ضعف الخلفاء العباسيين وانشغالهم بأمر الدنيا واللهو واللعب، وبسبب سوء إدارتهم وخنوعهم. يقول شوقي ضيف: «مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشدّ ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجاب، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مستخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة» (ضيف، ٢٠٠١م: ٩).

كل هذه الأمور تقودنا إلى القول بأن الحياة السياسية قد تدهورت في هذا العصر وكان الناس الخاسرين الوحيدين في كل هذه الاضطرابات السياسية. وبإمكاننا أن نقسم هذا العصر إلى ثلاث مراحل من الناحية السياسية:

#### ١. سيطرة الأتراك

كانت الدولة العباسية تقوم على العنصر الفارسي منذ نشأتها بفضل الجيش الخراساني وكانت الثقافة الفارسية هي السائدة، لكنّ الأمور تغيرت بعد مجيء المعتصم للحكم سنة ٢٣٢هـ. فقد كانت أمّ المعتصم تركية، وكان الرقيق التركي يزداد عدداً يوماً بعد آخر في بغداد، ففكر المعتصم بالاستفادة منهم ليتخلص من الفرس الممالئين للعلويين والمتعبين للخلافة، فاشترى الآلاف منهم وانتقل بهم إلى مدينة سامراء بعد أن ضاقت بهم بغداد. لقد جنى المعتصم جناية كبيرة على الدولة العباسية قوّضت أركانها بعد حين، وذلك بقيامه بإشراك الأمراء الأتراك في سياسة الدولة. فكانت الفترة الواقعة بين عامي



(٢٤٧-٣٣٤هـ / ٨٦١-٩٤٥م) فترة سيطرة العسكريين من الغلمان الأتراك على الخلفاء الضعفاء وكانت مقاليد الأمور بأيديهم وكانوا ينصبون ويخلعون ويقتلون الخلفاء كما يشاؤون. وقد كان قادة الجيش الأتراك يشعرون بقوة نفوذهم فتدخلوا في الحكومة وسيطروا على الحكم والسلطان حتى اكتمل سلطانهم في عهد المنتصر العباسي. (انظر: العسيري، ١٩٩٦م، ص ٢٠٧). ويعتقد الدكتور شوقي ضيف أن عملية انتقال القدرة والحكم إلى الأتراك قد شكّلت تحولاً سياسياً خطيراً في الدولة العباسية بسبب بعدهم عن مظاهر الثقافة والحضارة. (ضيف، ٢٠٠١م: ١٠).

وقد نرى انعكاساً لبعض الأوضاع السياسية في أعمال الأدباء والشعراء، وأهمها خضوع الخلفاء العباسيين للأمراء الترك. فعلى سبيل المثال، يقول بعض الشعراء في الخليفة المستعين بالله في هذا العصر:

خليفة في قصي  
يقول ما قالا له  
بين وصيف  
ويغاكما يقول البيغا  
(المسعودي، ١٩٨٢م، ٢: ٥٢٣)

وصيف ويغاكما من القادة العسكريين في العهد العباسي وهما من الترك.

## ٢. سيطرة البويهيين

نشأت الدولة البويهية في شمال بلاد فارس وقد وسّعت منطقة نفوذها لتشمل جميع بلاد فارس ولتنطلق نحو مركز الخلافة العباسية، بغداد، التي سيطرت عليها لاحقاً. وقد كانت «الفترة (٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م) هي فترة سيطرة البويهيين على الخلفاء العباسيين، وهم شيعة من بلاد الديلم» (انظر: العسيري، ١٩٩٦م: ٢١٥). وقد استولى آل بويه على الحكم العباسي مع أنهم اعترفوا بالخلافة العباسية رسمياً، ولكن كان الخليفة تحت سيطرتهم. وتحول منصب الخليفة إلى منصب صوري. وقد كانت الدولة البويهية، في هذا العصر، من الدول الكبرى وكانت تحكم عدة مناطق، منها: العراق وفارس والري والكرج والأهواز.

## ٣. سيطرة السلاجقة

تعود دولة السلاجقة إلى سلجوق، أحد رؤساء العُرّ (الترك) الذي انتقل مع عشائره، بعد توحيدهم، إلى منطقة «بخارى»، حيث أسلم وأسلمت معه عشائره، وذلك في منتصف القرن الهجري الرابع

(منتصف القرن الميلادي العاشر). ويقول عمر فروخ إنّ «السلاجقة أقاموا دولة في «إصبهان» (فارس) سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ومدوا سلطانهم من حدود الصين إلى العراق» (فروخ، ١٩٨١ م، ٣: ١٤٣).

وبعد أن قام الخليفة القائم بأمر الله العباسي بدعوة طغرل بك السلجوقي الذي كان حاكم خراسان، لبيّ الأخير الدعوة وسار تلقاء بغداد التي دخلها عام ٤٤٧ هـ، وبذلك انتهت سلطة البويهيين على بغداد. وقد توفيّ طغرل بك عام ٤٥٥ هـ ودُفن بمدينة «الري»، وخلفه من بعده ابن أخيه «ألب أرسلان» الملقّب بالملك العادل (انظر: ضيف، عصر الدول والإمارات (الجزيرة - العراق - إيران)، ٢٣٦ - ٢٣٧). ولا نكاد نرى اختلافاً بين المصادر التي تعرّضت لتاريخ السلاجقة سوى ما نراه لدى عمر فروخ وشوقي ضيف حول المنطقة التي أقام فيها السلاجقة دولتهم قبل مسيرهم صوب بغداد، إذ يذكر عمر فروخ أنّها كانت إصبهان (فارس) عام ٤٢٩ هـ، فيما صرّح شوقي ضيف بأنّها خراسان عام ٤٣٠ هـ. ولعلنا لا نبعد عن الصواب إن رجّحنا رأي الدكتور شوقي ضيف لكون بخارى التي كانت مسرحاً لكثير من الأحداث المرتبطة بالسلاجقة كانت قريبة من خراسان، بل كانت ضمن حدود خراسان القديمة.

### أهمّ الثورات

حدثت في العصر العباسي الثاني كثير من الثورات من أهمها ثورتان كبيرتان جمعنا عدداً كبيراً من حفاة المجتمع العباسي وعرائه وشغلت كل منهما الخلافة العباسية برهة من الزمن امتدت على مدى سنوات تطول أو تقصر، وهما ثورة الزنج (١٥ سنة) وثورة القرامطة (١٨٤ سنة):

### ثورة الزنج (٢٥٥-٢٧٠ هـ)

وهي من الثورات الكبرى التي حدثت في فترة حكم بني العباس للدولة الإسلامية، وكانت في بدايتها اعتراضاً على الظلم الاجتماعي والتمييز العنصري الموحّج ضدّ طبقة العبيد المسحوقة والمحرومة من أبسط حقوقها في الحياة، لكنها انحرفت عن مسارها الصحيح بعد حين. قيل إنّ الذي أشعلها هو رجل فارسي من ورزنين، قرية من قرى الري بإيران. فنشر آراءه في البحرين ضد الدولة العباسية ولكن لم يتبعه إلاّ القليل فخرج من البحرين وذهب إلى البصرة، ولما اطّلع الوالي على أمره غادر البصرة متّجهاً نحو بغداد، وبعد عام عاد إلى البصرة بعد أن حصل على فكرة جديدة، وهي أن يثير الزنج الذين كان يسخرهم الملاك الإقطاعيون في كسح السباخ عن أراضيهم مقابل أجر قليل لا يكفيهم لحاجاتهم

الأولية. فالتقوا حوله، وكان يدّعي أنه علوي، لكن شوقي ضيف كان يؤيد وجهة نظر المسعودي في اعتبار صاحب الزنج من الخوارج الأزارقة الذين كانوا يستحلون قتل النساء والأطفال. وهكذا حدثت ثورة الزنج وكثرت غاراتهم على المدن المختلفة مثل البصرة وقراها أو مدينة الأُبُلَّة التي تقع بعد نهر دجلة وأشعلوا النار على كثير من منازلها ثم هاجموا مدينة **عبادان والأهواز** وغيرهما، حتى أرسل الخلفاء جيوشهم لقمعهم ابتداء من المهدي (في سنة ٢٥٦) والمعتمد (في سنة ٢٥٧ و٢٦١) حتى استطاع الموفق أخو الخليفة المعتمد، بعد معارك عدة، أن يقمعهم في سنة ٢٧٠هـ (انظر: ضيف، ٢٠٠١م، ص ٢٦-٣٠، وأيضاً: المسعودي، ٢٠٠٥م، ٤: ١٥٦). ولابن المعتز أرجوزة طويلة يذكر فيها بعض الأحداث، يشير في جانب منها إلى ثورة الزنج، إذ يقول:

فَحَرَّبَ الْأَهْوَاذَ وَالْأُبُلَّةَ  
وَوَاسَطًا قَدْ حَلَّ فِيهَا حَلَّهُ  
وَتَرَكَ الْبَصْرَةَ مِنْ رَمَادٍ  
سُودَاءَ لَا تَوْقُنُ بِالْمِيعَادِ  
(ابن المعتز، د. ت: ٤٨٥)

### ثورة القرامطة (٢٨٦-٤٧٠هـ)

لئن كانت ثورة الزنج صرخة اجتماعية بوجه المترفين المرفهين المنحرفين عن تعاليم العدل والحرية والكرامة التي كفلها الباري تعالى لعباده فإنّ ثورة القرامطة كانت صرخة اقتصادية خرجت من أفواه المسحوقين المعدمين ضدّ الظلم المؤطّر بالإسلام. وقد ذكر الطبري في تاريخه أنّه قيل إنّ رجلاً من خوزستان قدم سواد الكوفة وأقام في قرية النهرين وكان يُظهر الزهد والتقشّف، ثمّ إنّه مرض فحملة حمّال أحمر العينين على أثار له إلى بيته وعالجه حتى برئ، وكان يدعو الناس إلى إمام من آل بيت الرسول (ص) فاستجاب له جمع كثير فسمع به والي الكوفة فطلبه فهرب، وكان أهل القرية يدعون ذلك الحتمال كرميته وهي بالنبطية أحمر العينين، فلما اختفى ذلك الخوزي دعاه الناس باسم صاحب الأثار لأنه كان في منزله، ثمّ حُفّف فقبل قَرْمَط (انظر: الطبري، ١٩٦٧م، ج ١٠: ٢٣-٢٤). وذكر في الصفحة التالية أنّ صاحب القرامطة رجل من سواد الكوفة كان يحمل غلات السواد على أثار له يُسمّى حمدان ويُلقب بقَرْمَط. وأقبل حمدان على دعوة كثير من الفلاحين في الكوفة والبصرة ووعدهم بتغيير أوضاعهم الاقتصادية، لأنهم كانوا يعملون للإقطاعيين، ولم يكن لديهم أجر يكفيهم لسدّ حاجاتهم. وانضمّ إليهم جمع من المسحوقين الذين كانوا يعيشون في البؤس

والفقر. وقد أسسوا دولة اشتراكية سنة ٢٨٦هـ وأغاروا على بعض المدن لقوتهم وكثرة عددهم (انظر: ضيف، ٢٠٠١م: ٣٥).

ولم تقتصر الحركة على هذا، بل امتدت إلى البحرين. وفي البحرين كان أول دعواتهم أبو سعيد حسين الجنابي. وقد هجموا كثيراً على البصرة والكوفة وحتى مكة والمدينة. وبعد سنوات عدة من الحرب والنهب، وفي عام ٤٧٠هـ انتصر عبدالله العيوني بمساعدة العباسيين والسلاجقة على القرامطة وانتهت دولتهم لتحل محلها الدولة العيونية بعد أن دامت لمدة ١٨٤ سنة، أي ما يقرب من قرنين (انظر: العسيري، ١٩٩٦م: ٢١٠). لكن شوقي ضيف يذكر أنها انتهت في الأحساء والبحرين، آخر معاقل القرامطة، بعد أن مات أبو طاهر، سليمان بن أبي سعيد الجنابي، آخر سراة القرامطة، عام ٣٣٢هـ وخلفه أخوه سعيد بن الحسن الجنابي الذي دخل في طاعة الدولة العباسية بعد دخول العراق في حكم البويهيين (انظر: ضيف، ٢٠٠١م: ٤٢).

### ثورات العلويين

بعد مصرع سبط النبي الأكرم (ص) الحسين عليه السلام وأصحابه وكثير من أهل بيته في واقعة كربلاء، لم يهدأ العلويون من ذرية الحسن والحسين عليهما السلام فكانوا يثورون على الدولة الأموية ما سنحت لهم الفرصة للثورة، وكان زيد بن علي بن الحسين (ع) أبرز نائري شهيدي. وبعد قيام الدولة العباسية، ظهر ثورات علوية في العصر العباسي الأول، أهمها ثورة محمد ذي النفس الزكية وأخيه. وفي زمان المستعين بالله العباسي، ثار يحيى بن عمر الطالبي، حفيد زيد بن علي بن الحسين (ع) في الكوفة عام ٢٤٨هـ، «ويرسل له المستعين بجيش كثيف يقضى على ثورته ويُقتل ويُحمل رأسه إلى بغداد ويُصلب ويكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه» (ضيف، ٢٠٠١م: ٤٥) وقد رثاه ابن الرومي بجميعة رائعة:

أمامك فانظر أيّ نحمجك تنهج؟ طريقان شتى: مستقيم وأعوج

(ابن الرومي، ج ١: ٣٠٥-٣٠٦)

«وفي سنة ٢٥٠هـ يخرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين [بن الحسين] ابن علي بن أبي طالب، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠هـ ويخلفه من بعده أخوه محمد. ويخرج على المستعين علويون مختلفون بالري وقروين والكوفة ويُقضى عليهم جميعاً»

(ضيف، ٢٠٠١م: ٤٥-٤٦). لكن الطبري يذكر أنّ الحسن بن زيد كان من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) وأنه سيطر على الديلم ومدن طبرستان؛ أمل والسارية (ساري حالياً) والريّ (انظر: الطبري، ١٩٦٧م، ٩: ٢٧١-٢٧٦). أما محمد بن زيد العلوي فقد قُتل في سنة ٢٨٧هـ في جرجان (انظر: الطبري، ١٩٦٧م، ١٠: ٨٢).

إنّ هذه الثورات حدثت من أجل مدّ يد العون للناس المسحوقين، وكان الناس يتطلعون إلى الفرصة المناسبة حتى يتخلصوا من عيشتهم الصعبة فكانوا ينضمون إلى هذه الثورات. وإنّ ظهور مثل تلك الثورات هو أوضح دليل على الأوضاع السيئة التي كان يعاني منها المستضعفون في المجتمع العباسي. وإذا كانت ثورة الزنج لم تدم طويلاً وكان نصيبها الفشل بعد أربعة عشر عاماً فإنّ ثورة القرامطة قد دامت فترة تقرب من قرنين من الزمن، الأمر الذي يدعو إلى التأمل. فقد كانت ثورة الزنج صرخة الإنسانية بوجه المنحرفين عن المفاهيم الإسلامية المتعالية، ولولا ذلك الظلم الكبير لما قامت لها قائمة، لكنها، مع الأسف، انحرفت عن مسارها الصحيح وخالفت المفاهيم التي نادى بها في البداية فصيرت المظلوم ظالماً. فحول طبقات الناس المنضمين تحت لواء القرامطة وأسباب انضمامهم للثورة، يقول شوقي ضيف: «وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين في سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقدير الشديد في الأجور، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة في المدن ممن كانوا يعيشون في بؤس مدقع، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلون من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذلك إلى الغنى وعزّه» (ضيف، ٢٠٠١م: ٣٥). ولم تختلف أسباب خروج العلويين على الخلافة العباسية عن تلك الأسباب، إلا أنّهم ما كانوا يثورون لأنفسهم، بل لمحق الظلم وإقامة العدل بين الناس. والأمر الذي يلفت النظر هو كثرة المعارك الداخلية، يظهر ذلك من مطالعة الجزأين التاسع والعاشر من تاريخ الطبري.

### الحياة الاجتماعية

ذكر الدكتور شوقي ضيف أن حفائر سامراء تكشف لنا تواجد قصور ودور كثيرة وهي تحمل النوافذ المتألقة بالزجاج الملون والحيطان المنقشة. وكانت أرض الدار مفروشة بالبسط الإيرانية والأرمنية وأيضاً كانت هناك مناضد الأبنوس والجامات المذهبة... ويواصل الدكتور شوقي

ضيف كلامه قائلاً: «وكأنما كُتِبَ على الشعب أن يكدح ليملاً حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرّع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق. ومرّد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حدّ، وطبقات فُتّرَ عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حدّ، واضطرب حياة أوساط الناس من التجار وسائرهم بين الشقاء والنعيم» (ضيف، العصر العباسي الأول: ٤٤-٤٥). ولم يكن الخلفاء في العصر العباسي الثاني أحسن حالاً من خلفاء العصر العباسي الأول، بل ازدادوا ارتكاساً في الملاهي والبذخ، إذ يتحدث الدكتور عمر فروخ عن المقتدر العباسي نقلاً عن الفخري قوله: «قيل إنّه كان في دار الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٣٩هـ<sup>١</sup>) أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان، وكانت خزّانة الجواهر في أيامه مترعة بالجواهر النفيسة» (فروخ، ١٩٨١م، ج٢: ٣٩٨). كما يتحدث الدكتور شوقي ضيف عن انغماس الخلفاء في حياة اللهو والترف في العصر العباسي الثاني، وبعد ذكر أسماء تسعة من القصور التي بناها المتوكل، ذكر المبالغ الطائلة التي صُرفت على بناء تلك القصور، ثمّ أردف قائلاً: «فالخليفة لا يفكر إلاّ في نفسه وملذاته، وكأنّ ليس هناك جيوش تُعدّ للحرب بأسلحتها وعدّتها الكثيرة، وكأنّ ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها، فيبني لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبي القصور وملاها بالجواري من كلّ لون» (ضيف، ٢٠٠١م: ١٩).

وعن الفوارق الطبقيّة الفاحشة بين رجال الدولة وعامة الناس في القرن الهجري الرابع، يتحدث الدكتور عمر فروخ قائلاً: «على أنّ المؤرخ المنصف لا يستطيع أن ينكر ازدهار الحضارة في هذا العصر... غير أنّ الثروات كانت موزّعة توزيعاً جائراً... فقد كان هنالك أفراد من رجال الدولة ومن ذوي الجاه في المجتمع يملكون الملايين ويُسرفون في المآدب والملاهي، بينما كان ثمت ملايين لا يجدون، أحياناً، ما يُنفقون ولا ما يشبعون به» (فروخ، ١٩٨١م، ج٢: ٤٠٧).

ومن البلايا التي ابتلي بها الناس آنذاك، الجبّاة الذين يقومون بتحصيل الضرائب من الناس، حيث يسومونهم ألوان العذاب لينهبوا أموالهم وثرواتهم «وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة، وإنما

١. في أصل النص ٢٣٩هـ، وهو خطأ، لعلّه طباعي.

أصبحنا بإزاء لصوص ومحتلسين وقطّاع طرق» (ضيف، ٢٠٠١م: ٢٢). ويُشير ابن المعتز إلى ذلك، في أرجوزته، حيث يذكر عدداً من الأشخاص الذين تعرّضوا للظلم لانتزاع ما في أيديهم من الأموال، منهم من قام رئيس الجباة بأخذ ضيعته منه، وآخر أخذ ماله وهتك حرمة. يقول:

يأخذ من هذا الشقيّ ضيعته  
وذا يريد ماله وحرمة

(ديوان ابن المعتز، د. ت: ٤١٧)

يتبين لنا، مما قاله الدكتور شوقي ضيف، أنّ النظام الطبقي كان سائداً في العصر العباسي الأول، ورغم الازدهار السائد في كثير من المجالات، كانت حياة الشعب صعبة. فإذا كانت حياة عامة الناس في العصر العباسي الأول المسمى بالعصر الذهبي بتلك الصورة من الضنك والبؤس، فما بالك بما في العصر العباسي الثاني المشحون بالثورات والاضطرابات السياسية وانقسام الدولة إلى دويلات وسوء الإدارة وضعف الموارد الاقتصادية وضغط الضرائب وكثرة الأمراض والآفات الاجتماعية وابتعاد الخلفاء والأمراء عن الدين وآلام الناس وآمالهم؟ لا بدّ أنّها كانت أسوأ. نعم، لقد كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني أسوأ من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول. ولم تكن مستقرّة وكانت كثيرة الاضطراب، وكان يسود المجتمع النظام الطبقي. فقد كان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات: طبقة عليا، وطبقة وسطى، وطبقة دنيا.

### الطبقة العليا

وهي تشمل الخلفاء والوزراء والقواد والولاة وأصحاب رؤوس الأموال من التجار وأصحاب الأقطاع. وكانت الطبقة الأولى تغرق في النعيم (ضيف، ٢٠٠١م: ٥٣). وقد كان الأمراء يحتاجون إلى المال لكي يدفعوه إلى قوادهم وجندهم ليضمنوا طاعتهم وكانوا بحاجة إلى المال، كذلك، حتى ينفقوه على الشعراء والعلماء والخدم وشراء الدور والعقارات واقتناء الذهب والمجوهرات وتمشية أمورهم اليومية وغير ذلك من النفقات. فكانوا يفرضون الضرائب الجائرة على كل شيء ويضغطون على الناس. وهناك أقوال كثيرة في كتب التاريخ في ما يتعلق بثروة الأمراء والخلفاء والوزراء وغيرهم من الطبقة الأولى<sup>١</sup>. وقد كانت هناك كميات هائلة من النقود يتم تبادلها بين أفراد هذه الطبقة دون غيرهم.

١. للاطلاع على الشواهد التاريخية، انظر: (المسعودي، ٢٠٠٥م، ج٤، ص ١٨٥ و ٢٢٣ و ٢٤٦) و (الزهريري، ١٩٤٩هـ، ص ٤٤).

### الطبقة الوسطى

في مقدمة هذه الطبقة، يندرج علماء العربية والفقهاء والتفسير والحديث وكان كثير منهم يأخذ رواتب من الدولة. ويدخل في هذه الطبقة الصناع والشعراء والمغنون الذين لم يلحقوا بالطبقة الأرستقراطية، وهناك عمال الدواوين المختلفة والخارج والضرائب ورؤساء الجند الصغار وأواسط الصُّنَّاع والتجار. (انظر: ضيف، ٢٠٠١م: ٦١-٦٢).

### الطبقة الدنيا

وهي طبقة عامة الناس، أو هي الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين، حيث كان يقع عبء العمل كله على عواتقهم في الزراعة والصناعات الصغيرة، بل تقوم اقتصاديات البلاد بهم. وكل ما كان لدى الطبقات العليا من النعيم كان على يد هؤلاء الناس الذين لم يبق لهم شيء سوى البؤس والفقر والشقاء.

ويتحدث الدكتور عمر فروخ عن الحالة الاجتماعية في عهد البويهيين، في القرن الخامس الهجري، وعن ظهور طبقة اجتماعية متطفلة في المجتمع العباسي هي طبقة العيارين. يقول: «وكثر العيارون في العهد البويهي وانتشروا وقوي أمرهم، ولكن أخبارهم تطالعتنا، في الأكثر، في بغداد. والذي يبدو أنّ العيارين كانوا، في الأصل، نقرأ من المعدمين الكارهين للعمل وبذل الجهد المنتج فآثروا أن يحصلوا معاشهم بالسلب والغصب... كانوا، في الواقع، جماعات من المفسدين الذين ينتهزون ضعف الحكام وفوضى الأحكام» (فروخ، ١٩٨١م، ج ٣: ٣٩).

ويذكر الدكتور شوقي ضيف عدداً من الحرف والمهن الطفيلية التافهة وكثرة التسول والكدية والخداع والمكر والنصب والاحتيال نتيجة لبؤس هذه الطبقة وشدة الحياة وصعوبتها، لكنّ أخطر ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة اللصوصية، إذ يقول: «ويدلّ دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المرّ أن كثر بها اللصوص، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد، لكثرتهم ولشدة فتكهم» (ضيف، ٢٠٠١م: ٦٤).

وبجانب كل ما ذكرنا، يمكننا الإشارة إلى الأدب في هذا العصر بشكل عام، سواء أ كان نظماً أم نثراً، فهو خير مرآة ترىنا الأوضاع الاجتماعية آنذاك. فقد كان هناك أدب الحرمان الذي يصور حياة البؤس والشقاء، وهو نوعان:



**الأول:** أدب التسوّل أو الكدية الذي يصوّر واقعاً مأساوياً يُهين كرامة الإنسان الذي كرمه الخالق تعالى وجعله سيد المخلوقات، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠). **والثاني:** أدب الشكوى. وهو يصور الفشل الذي يُعنى به الأديب في صراعه مع الزمان وصروفه وأعبائه ومشاكله الكثيرة، لا لقصور في الأديب، بل لظلم الأيام وقسوتها وما تُحدثه هذه الأمور في نفس الإنسان من المرارة والألم والإحباط. كما أنّ الزمان المنسوب إليه الظلم والقسوة هو بريء منهما في واقع الأمر لأنهما من صفات حكام ذلك العصر الذين حولوا حياة المستضعفين من الناس إلى جحيم لكي ينعموهم بالجنة.

وخير مثال للقسم الأول هو المقامات، إذ بإمكاننا أن نحصل على صورة من المجتمع العباسي في ذلك الزمان عبر دراستها بتمعن. فالمقامات كانت مألوفة، سهلة التناول لأنها تستمد قصصها من الواقع الملموس؛ من حياة المكذّبين الذين كثروا في ذلك العصر والذين كانوا يُدعون بالساسانيين، أو بني ساسان. وقصة المقامات تدور حول التكندي والتسول ويكون بطلها من المتسولين وتدور أحداثها حول البطل ومغامراته. وجددير بالذكر أنه تمت الإشارة في مقامات بديع الزمان الهمداني إلى آل ساسان المتسولين. ولانتشار الساسانية، أو بني ساسان، كما يسميهم الهمداني، انعكس ذلك المصطلح على الأدب آنئذٍ، حيث سمى بديع الزمان الهمداني إحدى مقاماته بالمقامة الساسانية؛ قال في بدايتها: «حدّثنا عيسى بن هشام، قال: أحلّني دمشق بعضُ أسفاري. فبينما أنا يوماً على باب داري، إذ طلع عليّ من بني ساسان كتيبة قد لّفوا رؤوسهم...» (الهمداني، ٢٠٠٥م: ١٠٨). قال في هامش الصفحة: بنو ساسان: الشخّاذون وأهل المسألة.

يؤيد ذلك أنّ ما يطالعنا في الأسباب المحتملة لتأليف مقامات الحريري قول الشريشي، شارح مقاماته، نقلاً عن الفنجديهي<sup>١</sup>: «قال: ... سمعتُ الشيخ الرئيس أبا مُجّد الحريري يقول: أبو زيد السّروجي كان شخّاذاً بليغاً، ومكدياً فصيحاً، ورد علينا البصرة، قال: ... وكان يغيّر في كلّ

١. الفنجديهي بالفاء والجيم أو بالباء الموحدة والجيم و البنديهي بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء، هذه النسبة إلى بنج دية من أعمال مروود، ومعناه بالعربي خمس قرى،

(ملتقى أهل الحديث: <http://www.ahlaltheeth.com/vb/showthread.php?t=84649>).

مسجد زيّه وشكله، ويظهر في فنون احتياله، فعجبوا من جريانه في ميدانه، وافتنانه في إحسانه؛ قال الحريري: فابتدأت في إنشاء المقامة الحرامية في تلك الليلة، حاذياً حذوه، فلما فرغت منها أقرأها جماعة من الأعيان، فاستحسنوها غاية الاستحسان، وأتوا ذلك إلى وزير السلطان، واقترحوا عليّ أخواتها، والله المستعان» (الشريشي، ١٩٩٢م، ج ١: ٢٦-٢٧).

أما الثاني فهو **أدب الشكوى**؛ الشكوى من الزمان وأهله والبؤس والظلم، ومن الأوضاع القائمة في المجتمع. مثل ما ذكر ابن لنكك البصري (ت ٣٦٠ أو ٣٦٢) الذي عاش في القرن الرابع الهجري:

وأصغر عيب في زمانك أتته

به العلم جهل والغاف فُسُوهُ

(الضامن، ١٩٩٩م: ٣٤)

ولا يتوانى التوحيدى عن التنويه بمسألة أهمية طلب القوت وصعوبة تحصيله في كتبه. فقد قال في الكتاب نفسه: «... على أنّ الزهد في هذا الشأن قد وضع عتاً وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه، والتغني به والتوفّر عليه وتقديمه على ما هو أهمّ منه، أعني طلب القوت الذي ليس إليه سبيل إلا بيع الدين وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه وكّد البدن وتجرّع الأسى ومقاساة الحرقة ومضّ الحرمان والصبر على ألوان وألوان، والله المستعان» (التوحيدى، (د. ت)، ج ٢: ١٤٣).

وليس الأمر كما قال الدكتور عمر فروخ حول العيارين أنهم كانوا «نفرًا من المعدمين الكارهين للعمل وبذل الجهد المنتج فأثروا أن يحصلوا معاشهم بالسلب والغصب». لا، ليس الأمر كذلك، فكرامة كلّ إنسان عزيزة وغالية عليه لا يمكن أن يهدرها بسهولة دون أن تكون هناك ظروف قاهرة وأخرى مشجّعة، وكل ذلك يقوم بتوفيره الظلمة من الحكام الذين لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، نسوا الله فأنساهم أنفسهم وفرحوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، بل هم كالبهائم همّهم علفهم ودينارهم ودرهمهم، أدلاء أمام الأهواء، قد استحوذ عليهم الشيطان... هذه هي الظروف التي جعلت سيرة عنتره تجد لها رواجاً كبيراً بين المسحوقين علّ أحلامهم تتحقّق في غفلة من الظروف القاسية.

## النتيجة

١. إن تدهور الأوضاع السياسية للعصر العباسي الثاني وانعدام الاستقرار في الحكم ساعد في زيادة سوء أمور الناس الاجتماعية والاقتصادية. فضعف الخلافة العباسية أطمع فيها كثيراً من

الانتهازيين المنتفعين الذين لا تهتمهم سوى مصالحهم، وقد باءت جهود الذين حاولوا إصلاح الأمور بالفشل، فيئس الناس من الإصلاح.

٢. إن اضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أدى لأن يكون الفارق بين طبقات المجتمع كبيراً جداً.

٣. إن شيوع ظاهرة التكدى والتسول وكذلك ظاهرة اللصوصية والسرقه والعيارة وبروز أدب الشكوى في المجتمع يُعتبر ردود فعل سلبية على الظروف الاقتصادية الصعبة ومحاولة غير موفقة للهروب من الواقع المأساوي، ولعلّه استسلام أمام الواقع المرير.

٤. رواج «سيرة عنتر» في هذه الأوضاع الحرجة بين الناس كان بسبب الظروف القاسية التي كان يعيشها الناس في كثير من المجالات التي أُشير إليها. فكان الناس يذكرون «سيرة عنتر» بينهم وهم يرجون ظهور بطل مستضعف عانى من الظلم وقاومه واستطاع التخلص منه وتخلص قومه أيضاً، خارق للعادة قوي شجاع عفيف ينقذهم من نكبة الخلفاء العباسيين. فكانت «سيرة عنتر» مرهماً لجروحهم القاتلة التي كان سببها الخلافة العباسية. ولم تكن «سيرة عنتر» شائعة بين الناس للرفاه والترف الذي كانوا يرفلون به، بل لشدة الأوضاع عليهم.

## المصادر

القرآن الكريم.

ابن الرومي (٢٠٠٢م)، الديوان، شرح: الأستاذ أحمد حسن بسج، الطبعة الثالثة، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٩٥٨م)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف.

ابن المعتز، عبد الله (د. ت)، الديوان، (د. ط)، بيروت: دار صادر.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٢٠٠٨م)، كتاب الأغاني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس و الدكتور إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس، الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر.

بريل، أ. جي. وآخرون (١٩٩٨م)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير نخبة من العلماء بإشراف الدكتور إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، الطبعة الأولى، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري.

التوحيدى، أبو حيان (د. ت)، كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه أحمد أمين وأحمد الزين، (د. ط)، القاهرة: دار مكتبة الحياة.

ثعلب، أبو العباس (٢٠٠٤م)، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: حتّا نصر الحّيّ، (د. ط)، بيروت: دار الكتاب العربي.

زهير بن أبي سُلمي (٢٠٠٥م)، **الديوان**، اعتنى به وشرحه (وضع هوامشه): حمدو طمّاس، الطبعة الثانية، بيروت: دار المعرفة.

الزهبيري، محمود غناوي (١٩٤٩م)، **الأدب في ظل بني بويه**، (د. ط)، القاهرة: مطبعة الأمانة.

الزيات، أحمد حسن (د. ت)، **تاريخ الأدب العربي**، (د. ط)، القاهرة: دار تحفة مصر.

زيدان، جرجي (د. ت)، **تاريخ آداب اللغة العربية**، (د. ط)، القاهرة: دار الهلال.

الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (١٩٩٢م)، **شرح مقامات الحريري**، تحقيق: مُجد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية.

ضيف، شوقي (د. ت)، **تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي**، الطبعة الثانية والعشرون، القاهرة: دار المعارف.

————— (١٤٢٨هـ)، **تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات (مصر)**، الطبعة الأولى، قم: ذوي القربى.

————— (د. ت)، **تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات (الجزيرة- العراق- إيران)**، الطبعة الثانية، القاهرة:

————— (د. ت)، **تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول**، الطبعة السادسة عشرة، القاهرة: دار المعارف.

————— (٢٠٠١م)، **تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الثاني**، الطبعة الثانية عشرة، القاهرة: دار المعارف.

الطبري، أبو جعفر مُجد بن جرير (١٩٦٧م)، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، تحقيق: مُجد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف.

العسيري، أحمد معمور (١٩٩٦م)، **موجز التاريخ الإسلامي**، الطبعة الأولى، الدمام: مكتبة الملك فهد الوطنية.

عنترة بن شداد (د. ت)، **سيرة عنترة بن شداد**، (د. ط)، القاهرة: مكتبة الجمهورية العربية (المصرية).

الفاخوري، حنا (١٣٨٥هـ. ش)، **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، الطبعة الثالثة، قم: منشورات ذوي القربى.

فروخ، عمر (١٩٨١م)، **تاريخ الأدب العربي**، الطبعة الرابعة، بيروت: دار العلم للملايين.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٢٠٠٥م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، اعتنى به وراجعته: كمال حسن مرعي، الطبعة الأولى، بيروت: المكتبة العصرية.

الهمذاني، بديع الزمان أحمد بن الحسين (٢٠٠٥م)، **المقامات**، قدم لها وشرح غوامضها: الشيخ مُجد عبده، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الكتب العلمية.

يونس، عبد الحميد (١٩٩٥م)، **سيرة عنترة ملحمة شعبية عالمية**، (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

### مواقع إنترنتية

مقالة سيرة عنتره إلباذا الصحراء عن جدارة، موقع المسالك (١١/٢/٩٤): <http://www.almasalik.com>

<http://www.ahlalhdeth.com/vb>

ملتقى أهل الحديث:

## علت‌های رواج سیره عترة در عصر عباسی دوم

شاکر عامری<sup>۱\*</sup>، محمدعلی عامری<sup>۲</sup>

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه سمنان

۲. دانشجوی کارشناسی ارشد زبان و ادبیات عربی دانشگاه تهران

### چکیده

سیره عترة یکی از بزرگ‌ترین داستان‌های حماسی است که از شخصیت حقیقی عترة نشأت گرفته‌است. مقصود از عترة، همان شاعر و جنگاور بزرگی است که در عصر جاهلی می‌زیست. نام و یاد سیره عترة طی قرون متمادی تا عصر عباسی و حتی عصر حاضر بر زبان مردم ساری و جاری بوده‌است؛ بنابراین این سیره طی این زمان حجیم‌تر و بزرگ‌تر شده و سرشار از مبالغه درباره شجاعت و قدرت عترة بن شداد است. این پژوهش می‌کوشد تا علل این توجه روزافزون مردم به سیره عترة را در عصر عباسی دوم بیابد و با روشی توصیفی - تحلیلی به این مسئله پاسخ دهد. نتایج پژوهش نشان می‌دهد مردم در عصر عباسی دوم در وضعیت سیاسی، اجتماعی و اقتصادی طاقت‌فرسا و نابهنجاری به سر می‌بردند. در آن هنگام که شکاف طبقاتی و آسیب‌های اجتماعی جامعه را رو به زوال می‌برد و ناهنجاری‌هایی از قبیل دزدی، کلاهبرداری و گدایی رواج یافته بود، سردمداران حکومت در آسایش و رفاه بر جامعه حکم می‌راندند. در چنین وضعیتی، قیام‌ها و درگیری‌های متعددی در قلمرو وسیع حکومت عباسی رخ داد و دولت‌های کوچک و محلی فراوانی در این قلمرو شکل گرفتند. فشار طاقت‌فرسای این شرایط بر جامعه، یکی از علل روی آوردن مردم به سیره عترة بود. مردمی که در جست‌وجوی شخصی بودند که آنان را از این اوضاع نابسامان و فقر و تنگنا و ظلم نجات دهد و سرانجام این شخص را در شخصیت خیالی عترة یافتند که خود خالق آن بودند.

**کلیدواژه‌ها:** سیره عترة؛ عصر عباسی دوم؛ اوضاع سیاسی؛ اوضاع اقتصادی.